الاساكل البونيقية

أ.م.د. انمار نزار عبد اللطيف الحديثي

كلية التربية للعلوم الانسانية/جامعة الانبار

ed.anmar_nazar@uoanbar.edu.iq

الاساكل البونيقية

أ.م.د. انمار نزار عبد اللطيف الحديثي

مقدمة

اعتمد الكنعانيون وسائل عدة للسيطرة على الساحل الافريقي في الالف الاول قبل الميلاد، وكانت الاساكل من اهم تلك الوسائل، فهي شكلت نقاط ارتكاز لنفوذهم على الشريط الساحلي لشمال افريقيا من ليبيا الحالية وحتى مضيق جبل طارق (اعمدة هرقل). وبعد تحول النفوذ الكنعاني الى قرطاجة، اصبح البحر الابيض المتوسط تحت سيادتها ، فتحولت الاساكل الناشئة الى موانئ كبيرة ومهمة، واصبح لميناء قرطاجة مدينة كبيرة تحمل اسمه، وعاصمة لإمبراطورية بحرية حكمت الساحل الافريقي وسيطرت على تجارة البحر الابيض المتوسط، حتى قيل لا يسمح لاحد بغسل يديه في الساحل اليوناني او الروماني الا بأذن من القرطاجيين، و رغم المبالغة في الرواية الا انها دلالة واضحة على مدى قوة القرطاجيين، و سيطرتهم على سواحل البحر الابيض المتوسط.

الاساكل في اللغة:

لم اجد اصلا للكلمة في المعاجم العربية القديمة، وقد تكون دلالة على انها كلمة دخيلة، رغم اعتقادي انها قد تكون كنعانية الاصل ولم نعثر عليها بعد[١]. وردت الكلمة في احد المعاجم الحديثة:"اساكل كلمة اسبانية بمعنى السلم او السلم المتحرك"[٢]. وقد تكون الواح من الخشب، والاسكلة والصقالة الميناء في بحر الروم، او ما يتوصل به الى البرج اساكل وصقائل[٣]. واطلقها اليونانيون على ارصفتهم البحرية، لانهم كانوا يرون البحارة الكنعانيون عند توقفهم على الارصفة ينزلون اليها من السفن عبر سلم مكون من الواح خشبية[٤].

نشأة الاساكل:

انشأ الكنعانيون اول الاساكل البحرية، وكانت على شكل ارصفة بحرية لرسو سفنهم واتمام عملية التبادل التجاري. استخدموها على نطاق ضيق في الجزر القريبة من موانئهم

البحرية التابعة لصيدون وصور، اللتان كانتا الانشط [٥]في الحقبة التي سبقت عبورهم الى الساحل الافريقي، تحت ضغط الإمبراطوريات المجاورة الاشورية من جهة، والمصرية من جهة اخرى، اضافة الى ضغط الاقوام الهندو– اوربية والاقوام الآرامية[٦]. و بالرغم من وعينا لجميع الاسباب التي دعت الكنعانيين لاختيار البحر وسيلة اساسية للتبادل التجاري[٧] ، يبقى الموقع اولا ثم الوازع الاقتصادي ـ وهو الاهم ـ ثانيا، اساسا في هذا الاختيار، فنزلت المدن الكنعانية الى شواطئ البحر الابيض، ومارست بواكير التجارة البحرية بدءا بمناطق نفوذها على سواحل مدنهم الشرقية. وكانت رحلاتهم قصيرة اول الامر، اقتصرت على صيد الاسماك، وبيع منتجاتهم الخاصة، وتوثيق علاقتهم بالسكان الاصليين، فحقق الكنعانيون ارباحا جيدة. و نشير هنا الى ان سفنهم كانت معدة للأحمال الخفيفة اول الامر، فهم لم يغامروا بأنفسهم في عرض البحر، وبما ان سفنهم صغيرة فان عنصر السرعة غير متوفر لذلك لجأوا الى مبدأ اقامة الاساكل على الشواطئ اثناء اسفارهم البعيدة التي كانوا يقومون بها الى غربي البحر الابيض المتوسط[٨].

نظام المساحلة:

اعتمد الكنعانيون مبدأ المساحلة أسلوبا للملاحة البحرية ، أي التواصل مع سكان البلدان في حدود السواحل، او لنقل جيرة الساحل للأرض. وواضح انهم حرصوا على مجاورة لا تقلق السكان المحليين في بادئ امرهم. فاختاروا رؤوسا وخلجانا طبيعية ملائمة لرسو السفن[٩]، دون تدخلهم في تنظيمها، وفي اعتقادي ان هذه الرؤوس والخلجان الطبيعية كانت بمثابة نقاط للعبور[١٠] والحماية، فلم يبتعدوا عن السواحل وقربوا المسافات بحيث لا تستغرق الملاحة بين نقطة عبور واخرى الا ملاحة يوم واحد[١١].

تطلب نزول الكنعانيين الى البحر اختيار ارصفة بحرية طبيعية، وخلجان تساعدهم كدليل بحري مثلها مثل المنارة، استخدموها لملاحتهم حتى يستكشفوا المناطق[١٢] التي يستطيعون الوصول اليها ، ثم ينطلقون منها بعد ان يؤمنوا سيرهم الى نقاط اخرى. و قد نجحوا في عملهم هذا فنظام المساحلة يتضمن ايضا عدم الابتعاد عن البر وذلك لضمان عدم الضياع في البحر[١٣]، لذلك اصبحت نقاط العبور ملاجئ لهم يستريحون فيها من اتعاب السفر، او يلجئون اليها كلما هاج البحر وعصفت الرياح[١٤]، ويتوفقون عندها ليلا كي لا

تضيع سفنهم وسط البحر، فكانت بالضرورة كثيرة، و انتشرت على طول الشريط البحري الذي سلكوه. كانت المسافة بين منطقة عبور واخرى ثلاثين كيلو متر تقريبا[١٥]. وهم ما زالوا بعد لم يحددوا الارصفة والمحطات التجارية، لانهم يحتاجون الى تأمين المناطق الملائمة لأقامتها. فلم ترقى الاساكل أول الامر لان تكون محطات تجارية، ثم مراكز استيطانية ، ثم موانئ. دون التخلي عن وظيفتها كنقاط عبور تفيد في استدلال السفن وعدم ضياعها، ثم تحولت لاحقا لأرصفة بحرية وموانئ لها مدن.

تطور نقاط العبور (الاساكل):

سيطر الكنعانيون على سواحلهم البحرية، والطرق المؤدية الى الجزر الايجية، وبدأوا فرض سيطرتهم على ملاحة البحر الابيض المتوسط قبل انتقالهم الى الساحل الافريقي، فكان لزاما عليهم تطوير الاساكل (نقاط العبور) كي تتماشى مع طموحهم في تطوير التجارة البحرية. أخذ هذا التطور مسارين، **الاول:** بقاء نقاط العبور مجرد أرصفة بحرية تؤمن سير سفنهم البحرية لا غير لتؤدي وظيفتين، ضمان عدم ضياع سفنهم في البحر ليلا، وتأمين راحة المجدفين والبحارة الكنعانيين ليستعدوا للعودة نهارا الى الابحار في طرق تجارتهم البحرية. فكانت بدايتها محدودة لم تشهد تطورا واسعا، بسبب مخاطر قدرها الكنعانيون انفسهم، فبقيت مناطق استدلال ومحطات استراحة[١٦] اما لاحقا، وحسب رأيي، فأنها تطورت بعد ما حقق الكنعانيون من انجازات، مثل سيطرتهم على نقاط العبور، وعلى ملاحة شرق البحر المتوسط وشماله، وتطور تجارتهم وتحقيق مدخولات وارباح، حرصوا على ان تقدم نقاط العبور خدمات تسهل عملية الرسو للسفن التجارية فبنوا لها ارصفه من الحجارة[١٧] لتسهيل عملية استراحة السفن خاصة بعد تطور السفن هي ايضا وحاجتها الى عملية منظمة لأجل الراحة، وشيدوا اماكن مبيت البحارة وحماية المراكب ورسوها بشكل يحفظها من مخاطر البحر من مد وجزر او عواصف وهياج. لذلك امنوا على سفنهم كما امنوا بحارتهم.

المسار الثاني: ذهب نحو تحويل نقاط العبور الى محطات لقوافلهم البحرية ثم مراكز تجارية تؤمن نشاطهم التجاري من خلالها استطاع الكنعانيون ان يطوروا تجارتهم ويسيطرون على الملاحة البحرية في المتوسط والتوسع نحو مناطق اكبر ليحققوا تتويجا للتجارة البحرية

التي استعاضوا بها عن تجارة البر لتضييق الاقوام التي سيطرت او سكنت قرب مناطق الكنعانيون ومزاحمة تجارتهم البرية ولاحقا تدمير مناطقهم وممالكهم في سوريا على الساحل.

محطات القوافل البحرية والمراكز التجارية:

طور الكنعانيون الفينيقيون نقاط العبور (الاساكل) كي تتماشى مع اسواقهم الجديدة و تخدم تجارتهم الاخذة بالتوسع. فبنوا فيها مخازن لحفظ منتجاتهم التي يقايضون بها السكان المحليين واقاموا ارصفة مصنعة لحماية سفنهم التجارية والحربية لاحقا حتى صار البعض من هذه النقاط موانئ مهمة لمدن كانت جزءا من امبراطورية بحرية كبيرة امتدت الى المحيط الاطلسي.

ذكر هيرودوتس بأن هناك آلية للكنعانيين الفينيقيين في بيع منتجاتهم في شمال افريقيا ويبدو ان هذه الآلية كانت متبعة في جميع نقاط العبور التي اسسوها لتكون قاعدة في ما بعد لمحطاتهم قبل تحولها لمراكز تجارية، فكانوا يأتون ويفرغون حمولتهم و يرتبوا بضائعهم بنظام على الساحل ثم يوقدون نارا قبل الرجوع الى سفنهم في البحر، فيرى سكان المنطقة الدخان وهو اشارة على وجود اتصال وان هناك وافد جديد على الساحل فيأتون الى الساحل يضعون مقدارا من السلع التي يمتلكوها كالذهب مثلا او أي معدن اخر ويرجعون ادراجهم فيعود الكنعانيون الفينيقيون يفحصون المادة الموضوعة للمقايضة فإذا كانت مجزية اخذوها وابحروا، اما اذا لم تكن مجزية يعودون الى سفنهم ليضيف السكان المحلين كمية اكبر وهكذا يتم الاتفاق بين الطرفين وكانت هذه الآلية المتبعة لدى الكنعانيين الفينيقيين في ترويج بضاعتهم ثم انتقلت الى القرطاجيين بعد انتقالهم الى سواحل افريقيا[١٨].

تطورت بعض هذه المحطات التي عدها الكنعانيون مهمة في حساباتهم[١٩] فشرعوا ببناء مخازن يخزنون فيها بضائعهم[٢٠]، ثم مصانع يتم فيها صنع منتجاتهم التي زاد عليها الطلب نتيجة سياساتهم الناجحة في ترويج بضائعهم والمتاجرة فيها. ولعل اشارة هيرودوت عن معسكر الصوريين في مصر خير دليل على ذلك. استخدموا المعبد اساسا لنشاطهم الاقتصادي[٢١] قبل انطلاقهم الى شمال افريقيا فانتشرت مراكزهم ومخازنهم في مصر وغرب البحر المتوسط[٢٢]، وسيلة للتوسع والحصول على مزيد من المراكز تمدهم بالمعادن، ومزيدا من المواد الاولية تدخل في صناعة منتجاتهم. وعندما نجحت سياستهم وبدأوا يسيطرون على

المناطق الساحلية انطلقوا الى سواحل شمال افريقيا وجنوب ايطاليا واسبانيا لتوسيع نشاطهم بغية توفير المواد الاولية لصناعتهم بعد زيادة الطلب عليها.

اتخذ الكنعانيون الفينيقيون اول محطاتهم التجارية في مصر ثم انتقلوا الى جزر سواحل بحر ايجه بعد غزو الاقوام الدورية[٢٣] مناطق الموكينيين، فبرز دور الاقوام الفينيقية وباشروا توسعهم في جزر قبرص وكريت ورودس اولى المحطات التي من خلالها سيطروا على كامل السواحل الشرقية للبحر الابيض والجزر المنتشرة في بحر ايجة[٢٤].

فسر بعض المؤرخين انتشار الكنعانيين الفينيقيين في المناطق الساحلية المهمة واستيطانهم فيها بأنها ظاهرة تعود لأسباب اجتماعية واقتصادية دفعتهم للخروج من مدنهم الام والانطلاق الى مستوطنات سكنوها بشكل دائم و تعايشوا مع سكانها بسلام فمثلا مدينة صور التي كانت تتزعم مدن الساحل الفينيقي الشرقي في هذه الحقبة كانت تعاني من زيادة في عدد السكان فعالجت هذه المشكلة بتأسيس المستوطنات في الخارج لاستيعاب عدد من سكانها، واشارت الهذال الى حديث جوستين[٢٥] الذي ارجع تأسيس احدى المدن في شمال افريقيا لسببين، الاول يعود للأعداد المتزايدة للسكان في صور، و الثاني اخراج الشباب من المدينة للتخلص من مشاكلهم التي قد تؤدي الى الحاق الضرر بمصالح الطبقة الارستقراطية الحاكمة[٢٦]. يهمنا امر الاساكل الفينيقية التي اخذت بالتطور لتواكب تطور التجارة الكنعانية الفينيقية، فتحولت من مناطق عبور كما استعرضنا سابقا الى محطات تجارية تمارس فيها تسويق منتجاتهم الصناعية وحاجة تلك المحطات الى مخازن تستوعب الزيادة في المنتجات والية تنظيم توزيعها مما عزز تلك المحطات وتحولها الى مدن تمارس النشاط الاقتصادي بكل نواحيه.

المستوطنات البونيقية:

حدثت نقطة التحول في الاساكل الفينيقية عندما اتخذ حكام صور قرار العبور الى الساحل الافريقي والمغامرة لاكتشاف مراكز تتيح المجال لتجارة غير منتظمة وبسيطة[٢٧]، يستطيع من خلالها حكام صور التحكم بإدامة التوسع او الاكتفاء بالمستوى المتحقق. و يبدو ان القرار كان صائبا فتسيير السفن للتعرف والاكتشاف قاد اولا الى محطات تجارية ومراكز استيطانية ساهمت بموارد مالية مهولة[٢٨] لصور. وثانيا فسحت المجال لجاليات فينيقية

تستكشف مناطق جديدة استوطنتها ومارست التجارة فيها و حتى الصناعة، لتتحول في ما بعد لمدن مهمة ساهمت في تطور سيطرة البونيقيين[٢٩]على البحر الابيض المتوسط، وتأسيس امبراطورية بحرية كبيرة، بسبب نشاط هذه المراكز.

تأسست الاساكل في وقت كانت فيه صور وصيدا موانئ متطورة. الا ان النظام الذي اوجده الكنعانيون الفينيقيون هو الذي اوجد هذه الالية، لاستكشاف مناطق تدر عليهم الاموال من جهة، و تصرف فيها بضائع تجارتهم التي برعوا فيها من جهة اخرى. اتبعوا نظام المساحلة الذي رسم مواقع نقاط العبور (الاساكل)، الضامنة لسير المراكب وعدم ضياعها وحمايتها من ظروف الطبيعة، ولمسافات طويلة وصلت الى اسبانيا في طورها المبكر. وقد علل بعض المؤرخين تأسيس مثل هذه المستوطنات البعيدة دون ضمان اساكل تسيطر على نظام الملاحة فيها ـ كما هو متبع لدى الفينيقيين ـ بأن المصادر القديمة التي تحدثت عن الاستيطان الفينيقي لم تفرق بين طور الاستكشاف و التعرف، وبين طور الاستيطان الذي اسس مراكز تجارية بعيدة[٣٠]. وحين اكتشف الكنعانيون الفينيقيون ان هذه الاساكل نافعة لملاحتهم وسير مراكبهم التجارية، وضعوا لها ممكنات للتطور الى ارصفة تسهل عملية رسو هذه المراكب، واذا ما وجدوا فيها سوقا لبضائعهم تحول نقاط العبور (الاساكل) الى محطات او وكالات تجارية، ثم اذا كان موقع هذه المحطات صالحا، ويساهم في نقلة نوعية مثال وجود المعادن كالنحاس او القصدير او الحديد او الذهب او احيانا يكون موقع استراتيجي لضمان تنافسهم مع الاقوام الاخرى، تصبح هذه الاساكل مستوطنات يسكنها الكنعانيون الفينيقيون كي يشرفوا على هذه المحطات بصورة مباشرة، واحيانا تقام مصانع للتعدين او صناعة الانسجة لتواكب الزيادة المطردة على البضائع التي يتاجرون فيها فتتطور ويطلق عليها مستوطنات. وفي بعض الاحيان لا تجري عملية التطور لهذه الاساكل بالشكل الذي قدمناه فتزول[٣١]، والاسباب اما عدم جدواها بسبب ظروف التيارات المائية التي تربك عملية الملاحة[٣٢]، او مناطق صخرية فيها مخاطر على المراكب التجارية، او عدم وجود سكان محليين يستهلكون بضائع التجارة الكنعانية[٣٣]، او مزاحمة اقوام هي الاقرب الى هذه المناطق التي اختارها الكنعانيون الفينيقيون فيتركوها لينتقلوا الى مناطق امينة بعيدة عن مزاحمة تلك الاقوام[٣٤].

حدد بعض المؤرخين عدد نقاط العبور(الاساكل) الفينيقية (البونيقية) ما يقرب من ٣٠٠ نقطة عبور[٣٥] وبالرغم من كون العدد كبير الا اننا لا نبالغ اذ سلمنا بصحته فتحدث جزيل بأن الامكنة التي وصلها الكنعانيون الفينيقيون كانت منذ البداية كثيرة العدد بسبب رحلاتهم البحرية التي تسير بمحاذات الساحل وبما ان مراكبهم التجارية كانت تسير بمحاذاة الساحل فبالتأكيد كانت بحاجة الى سلسلة من مراكز الإيواء والمحطات يلتجئون اليها اذا اضطرب البحر، وينتظرون الرياح الموافقة ويتزودون بالماء ويستريحون المجدفين من العناء ويصلحون عطب السفن اذا ما اصابها شيء في ابحارها[٣٦]. لذلك يكون العدد غير مبالغ فيه. وفي دراسة جديدة لنيكولاس كارايو نقلتها فطومة في دراستها[٣٧]، احصى فيها عدد الموانئ فقط في عموم مناطق نفوذ الكنعانيون الفينيقيون فكانت١٨٣ ميناء. وبالتأكيد قصد فيها جميع الارصفة البحرية اضافة الى المحطات التجارية فلنا ان نتصور مالم يستطع الوصول اليه من محطات اخرى ونقاط عبور(اساكل) وموانئ.

تأتي اهمية المستوطنات الكنعانية من كونها في الاساس موانئ وبتطور الموانئ تطورت المدن وليس العكس فالطبيعي ان تنشأ المدن ثم فيما بعد تنشأ موانئها لكن في المحطات الفينيقية البونيقية العكس هو الصحيح، فبسبب نظام المساحلة تؤسس نقطة عبور ثم تتطور حسب الاهمية محطات تجارية تزود بأرصفة البحرية واذ ما زادت اهميتها واصبحت مستوطنة فتنشأ (مدينة الميناء). أنشأ الكنعانيون الكثير من المحطات والمدن والمستوطنات المهمة لهم، قد تعود نشأتها الى تواريخ مبكرة سابقة لا يتسع المجال لاستعراض هذه المستوطنات في هذه الدراسة فقد تم استيعابها في دراسات سابقة، لكن لابأس ان نشير الى اقدم هذه المستوطنات واشهرها لدى الاقوام الكنعانية الفينيقية في سواحل جنوب ايطاليا واسبانيا وسواحل تونس .

أخترت اربع مستوطنات، ثلاثة منها لأنها شكلت نقطة تحول للكنعانيين الفينيقيين، ولعبت دورا في تشكيل الامبراطورية البحرية التي قادتها المستوطنة الرابعة قرطاجة، بعد سقوط صور اخر معقل للكنعانيين في منطقة الساحل الشرقي للبحر الابيض المتوسط الذي اصبح خاضعا لإمبراطوريات الشرق القديم. وقفت هذه المستوطنات الى جانب قرطاجة التي

تشكلت في عام(٨١٣ ـ ٨١٤ ق.م) أي بعد حوالي ثلاثة قرون من الزمن تأسيس المستوطنات الثلاثة حسب اجماع المصادر والمراجع[٣٨].

١) **كدير(Gadir) قادس او كادس (Gades)**[٣٩]: وهي الاقدم كموقع متميز اتخذه الكنعانيون الفينيقيون في نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد تحديدا عام ١١١٠ق.م. تقع في نهاية الطريق التجاري المؤدي من نهاية الحوض الغربي المؤدي الى المحيط الاطلسي لتكون قريبة من المستوطنات الكنعانية الفينيقية على سواحل شمال افريقيا و المستوطنات المطلة على المحيط الاطلسي خاصة المستوطنة المهمة الاخرى ليكسوس المدينة التوأم لها[٤٠]، تميز نشاطها التجاري بالدرجة الاساس في التعدين وخاصة الفضة و القصدير والنحاس[٤١].

٢) **ليكسوس (Lixus)**[٤٢]: من ابرز المستوطنات الفينيقية القديمة معاصره لمستوطنة قادس اسست على سواحل المحيط الاطلسي في نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد الغرض من تأسيسها استراتيجي اكثر من كونها تجاري. ارتبط موقعها بحماية المستوطنات الغنية بالمعادن.

٣) **اوتيكا (utique)**[٤٣]: تقع في وسط سهول شمال تونس تعد ثالث اهم مستوطنة قديمة يرجع تاريخها الى ١١٠١ او ١١٠٠ق.م. الهدف من تأسيسها عاملين اساسيين الاول اقتصادي فتعد اراضيها من اجود الاراضي الصالحة للزراعة والثاني والاهم في تقديري استراتيجي لموقعها الرابط بين الطريق البحري من صور الى قادس[٤٤].

قرطاجة (مدينة الميناء):

اخذت الموانئ الكنعانية البونيقية اهميتها من نجاحها في الحصول على المعادن التي تحتاجها قرطاجة، وسيطرتها على الاراضي الخصبة الصالحة للزراعة، والمناطق الاستراتيجية التي تتيح استمرار الملاحة، والمواقع النشطة لرصد النشاط التجاري البحري لتجارة الكنعانيين في جميع اصقاع البحر الابيض المتوسط و العبور الى المحيط الاطلسي. ومن بين جميع المحطات والمستوطنات الاستراتيجية اكتسبت قرطاجة اهميتها. وبغض النظر عن اسباب نشأتها، وما قيل من الاساطير عن تلك النشأة[٤٥]، يبقى الاساس في كونها المثال الاعلى في تطور نقاط العبور وتحولها الى مستوطنة مهمة يتمتع مينائها بمزايا

متطورة، نتجت عن خبرات الكنعانيين في تأسيس مثل هذه المحطات لتصبح المحطة الاخيرة في ذلك التطور، و اهم مدينة ميناء بونيقية تقود المستوطنات والمحطات التجارية بعد اضمحلال المدن الكنعانية واخرها صور، ثم لتصبح عاصمة لإمبراطورية بحرية لم نشهد لها مثيل في العالم القديم بل تكاد تكون المثال الاعلى بين الامبراطوريات البحرية.

طور ميناء قرطاج المزدوج ليصبح اهم الموانئ البونيقية في الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط، وفصلّ جزيل في وصف هذا الميناء، والذي يهمنا هو اعطاء صورة واضحة تبين الالية التي ابتكرها الكنعانيون البونيقيون في بناء الموانئ في المستوطنات المهمة، و الناتجة عن خبراتهم في بناء موانئهم في منطقة الساحل الشرقي للبحر الابيض المتوسط في كل من فلسطين ولبنان. كانت مرافئ قرطاجة معدة للسماح بمرور السفن من مرفأ الى اخر، تدخل السفن من البحر عن طريق مدخل عرضه سبعون قدما (تقريبا ٢١متر حددها جزيل ب٢٠متر و٧٠سم)، يتم اغلاقه بسلاسل من حديد الى حوض مستطيل الشكل طوله (٤٥٦م) وعرضه (٣٢٥م)، يحيط به رصيف قدر عرضه (٤.٥٣م) وهو الميناء الاول التجاري. يرتبط بالميناء الحربي بمدخل شبيه بمدخل الميناء التجاري، وبنفس المقاسات. دائري الشكل داخله جزيرة دائرية قطرها (١٠٦م)، يحيط بها رصيف قدر عرضه ب(٩.٣٥م) وطول محيطه (١٠٢١م) فيه مقر القائد الاعلى للأسطول الحربي، و حجرات لضم الاسطول الحربي قدرت طاقته بأستيعاب (٢٢٠) سفينة. في مدخله حواجز كثيرة تحجب النظر عنه لحمايته،[٤٦]. يطلق على هذا الميناء القطون (الكوثون) كدلالة على كونه ميناء اصطناعي نحته الكنعانيون الفينيقيون، وحسب جزيل ان جذر الكلمة اصله جزري(سامي) بمعنى نحت اي من صنع الانسان، وقد يكون دلالة على قطن أي موضع اقامة السفن والمهم ان القطون في رأيي هو اعلى ما وصل له الكنعانيون البونيقيون في بناء الموانئ المزدوجة التي تطورت من الاساكل (نقاط العبور).

الرحلات البحرية:

استمرت رحلات استكشاف اسواق جديدة تدعم تجارة قرطاجة، وتضاعف ارباحها، وبالضرورة اضافت الى إمبراطوريتها البحرية نقاط عبور ومراكز تجارية جديدة اخرى، يبدو انها لا ترقى الى مستوطنات مهمة وموانئ كبيرة، لكن على الاقل ضمنت مواد اولية تدعم

تجارة قرطاجة اهمها الذهب قرب نهر السنغال. ارسلت قرطاجة في نفس الوقت رحلتين الاولى باتجاه سواحل انكلترا، والاخرى الى جنوب سواحل موريتانيا الحالية وهي مناطق لا يزاحمهم فيها احد، فهي خارج البحر الابيض المتوسط بالإضافة الى مستوطنتي قادس وليكسوس اللتان تراقب حركة الملاحة على مدخل المحيط الاطلسي. قاد الرحلة الاولى هملكون[٤٧] الذي توجه الى الشمال من اسبانيا بأتجاه سواحل انكلترا وكل الذي نعرفه عن الرحلة انها قد تكون وصلت الى ايرلندا ، ولا نعرف اذ كان قد نجح في تحقيق هدفه من هذه الرحلة التي كلف بها من الحكومة القرطاجية لضمان السيطرة على السوق المعدنية في الشمال الغربي لأوربا واهمها القصدير ام لم ينجح؟ لكنه وصف رحلته بأنها لاقت مصاعب جمة منها سكون البحر الذي اوقف سفنه في مساحات مائية تكثر فيها الاشنات المعرقلة لسير السفن، ومسافات واسعة لها قيعان رملية لا يغطيها الماء الا قليلا، وعلى الضباب الكثيف الذي يحجب السماء والبحر، والوحوش الضخمة المخيفة في البحر[٤٨].

قاد الرحلة الثانية الملك حنون[٤٩]، اتجهت من قرطاجة نحو قادس ثم اتجهت جنوبا وقد اخبرنا حنون بأن رحلته نجحت في تأسيس نقاط عبور و مركز تجاري في قرنة و ست مستوطنات[٥٠] وحسب اخباره، هناك اماكن كانت لا تصلح حتى ان تكون نقاط عبور مثلها مثل رحلة هملكون بيد انه وصل تقريبا الى نهر السنغال، ونجح بتأمين الذهب لقرطاجة عن طريق تأسيس المستوطنات والاساكل التي تؤمن النشاط البحري في سواحل غربي افريقيا الاستوائية وقد تكون منطقة قرنا اهم منطقة في رحلته بصفتها مركزا تجاريا، وبالرغم مما قيل في تحرك اسطوله والعدد المبالغ من المعمرين، ومشاكل تحديد المستعمرات، وحتى المناطق التي وصل اليها، الا انه اكد كون الاساكل الفينيقية ثم البونيقية وتحولها الى محطات تجارية ومستوطنات ومدن ميناء، هي الاساس في التوسع الفينيقي وتأسيس اهم امبراطورية بحرية في حوض البحر الابيض المتوسط في منتصف الالف الاول قبل الميلاد[٥١].

عزز نجاح الفينيقيين حفظهم اسرار طرق تجارتهم البحرية، وحركة الرياح والتيارات البحرية كي يحتكروا طرق الملاحة ويؤمنوا التجارة التي نافسوا بها الاغريق والرومان، ووصلت الينا اشارة عن هذا الامر تفيد بأن احد قادة السفن المتجه الى سواحل انكلترا قذف بسفينته الى الصخور عمدا وحطمها لأنه اكتشف ان السفن الرومانية تتبعه لاكتشاف هذا

الطريق المهم. وشجعوا حكام قرطاجة هذا العمل بتعويض الربان ثمن حمولة السفينة[٥٢]كمكافئة، واعتمد صفر على هذه الحادثة في القول بأن نص رحلة حنون التي عرضها على مجلس الشيوخ قد حذفت منه جميع المعلومات المهمة كإرشادات طريق الرحلة كي تحتفظ الدولة بهذه المعلومات كجزء من اسرارها التي لا يمكن البوح بها خاصة بعد اطلاع مجلس الشيوخ على الرحلة واعلنها على العموم بعد نقشه وتعليقه في معبد بعل حمون (كرونوس)[٥٣].

الخلاصة

١) الاساكل نقاط عبور كنعانية افادتهم في تطوير تجارتهم. بدأت بداية بسيطة، و اعتمدت نظام المساحلة، وهي مناطق فيها خلجان طبيعية تسمح للمراكب بالرسو بشكل آمن مثلها مثل المنارات في الوقت الحاضر. انتشرت في جميع سواحل البحر الابيض المتوسط في شماله وجنوبه وشرقه وانتقلت معهم غربا حينما عبروا المحيط الاطلسي.

٢) أنشأت في البداية لحماية المراكب من الضياع ليلا، واماكن استراحة للمجدفين، ثم تطورت الى ارصفة ومحطات تجارية تبعا لأهمية المكان الاستراتيجية، او مناطق خصبة للزراعة او مناطق تحتوي على معادن مهمة افادت التجارة الكنعانية.

٣) نتج عن اهميتها للمحطات التجارية، تحولها الى مراكز استيطان كنعانية للأشراف المباشر على تجارتهم.

٤) اخذت بعض مراكز الاستيطان الكنعانية الفينيقية بالتطور الى مدن وموانئ كبيرة ومهمة مثّل ميناء قرطاجة، و مثلت مرحلة متقدمة في الابداع والتقدم الحضاري لاسيما في الفن المعماري.

٥) وظَف الكنعانيون البونيقيون تخلصهم من التبعية لصور، في انشاء اساكل ومحطات تدعم سيطرتهم التجارية. ويعد القطون (الكوثون) اعلى ما وصلوا له في تطوير الموانئ المزدوجة وتخطيطها، ونحت الصخور، وبناء الارصفة. ومثلت تلك المرحلة ذروة ما وصل اليه الكنعانيون البونيقيون في بناء الموانئ. وقيل ان المصانع الحربية في الميناء

العسكري في قرطاجة استطاعت بناء اسطول مكون مما يقرب من خمسين سفينة حربية ضخمة.

٦) خلدت الاساكل الكنعانيين تاريخيا، بصفتهم قوم من التجار تميزوا بخبرة في الملاحة، وتقدم في التجارة، ورقي في اسلوب تخطيط الموانئ، وتجميل المدن بفنون لم يألفها الاخرون.

ملحق الخرائط[٥٤]

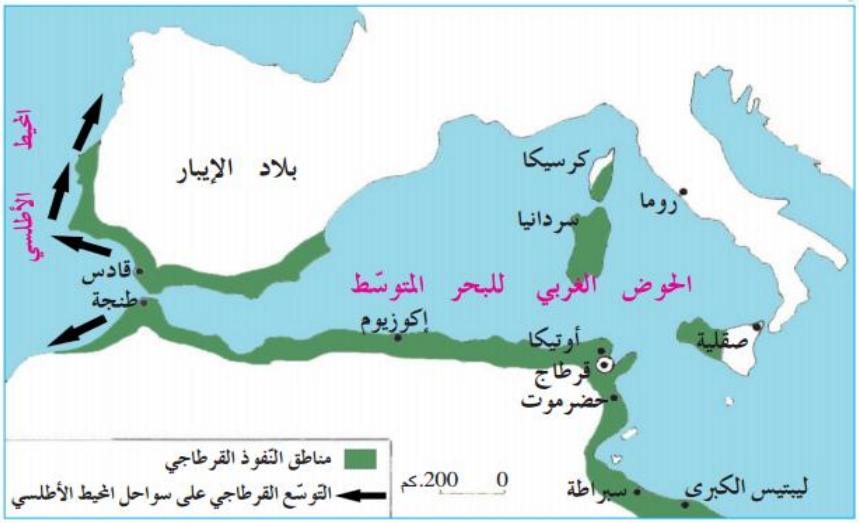

مجال نفوذ قرطاج

خارطة رقم(١) مستوطنة قادس

خارطة رقم (٢) مستوطنة ليكسوس

موقع قرطاج

خارطة رقم (٣)

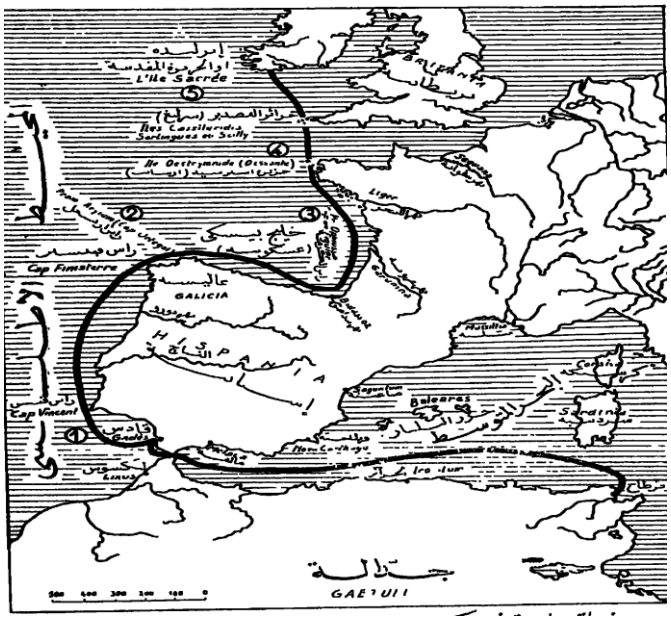

خارطة رقم (٤) رحلة هملكون

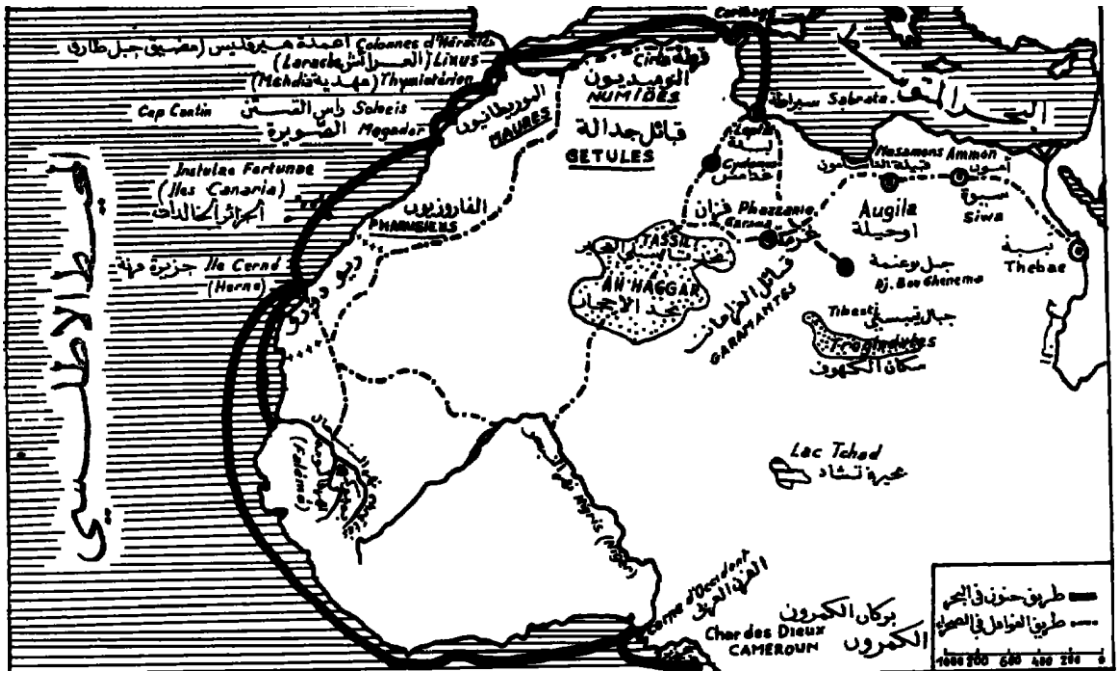

خارطة رقم (٥)رحلة حنون

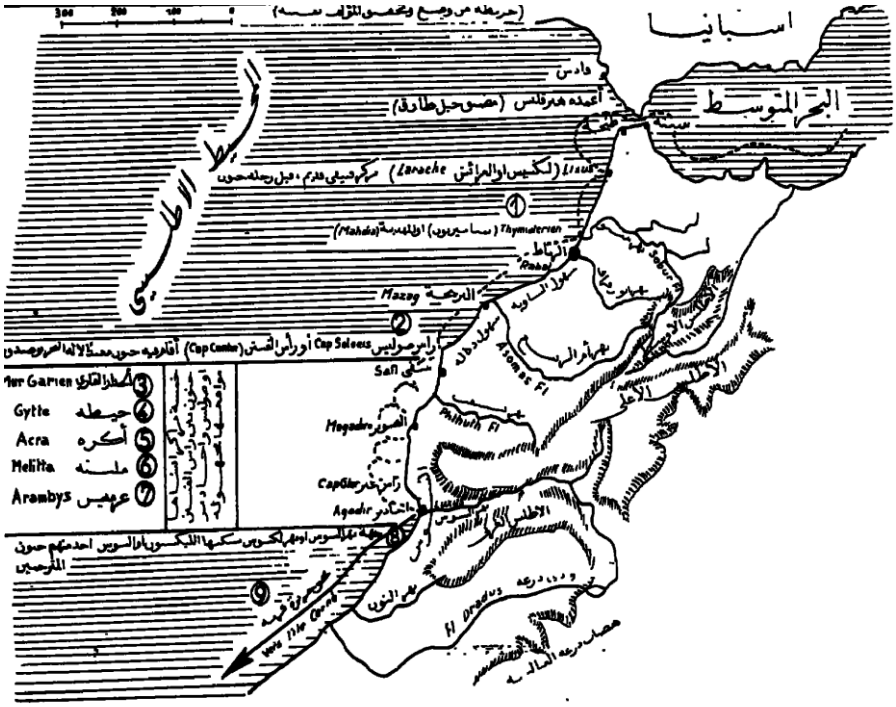

خارطة رقم (٦) المراكز التي اسسها حنون في رحلته

المصادر والمراجع

١) باقر: طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (حضارة وادي النيل)، (مجلدين، بغداد: بيت الوراق للطباعة والنشر، ٢٠١١).

٢) البستاني: بطرس، محيط المحيط قاموس مطول لغة العربية، (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٧).

٣) جزيل: ستيفان، تاريخ شمال افريقيا، ترجمة: محمد التازي سعود، (٨ اجزاء، الرباط: اكاديمية المملكة المغربية ـ مطبعة المعارف الجديدة، ٢٠٠٧).

٤) جوليان: شارل اندريه، تاريخ افريقيا الشمالية تونس الجزائر المغرب الاقصى منذ البدء الى الفتح الاسلامي٦٤٧م، تعريب: محمد مزالي و البشير بن سلامة، (ليبيا: مؤسسة تاوالت، ٢٠١١).

٥) الدراجي: بوزياني، ملامح تاريخية للمجتمعات المغربية، (الجزائر: مؤسسة بوزياني للنشر والتوزيع، ٢٠١٣).

٦) دوزي: رينهارت بيتر آن، تكملة المعاجم العربية، ترجمة: محمد سليم الغنيمي، (بغداد: وزارة الثقافة والاعلام، ١٩٧٩).

٧) سلاطينة: عبد الملك، المستوطنات الفينيقية – البونية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، اطروحة دكتوراه، غير منشورة، (كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية ـ جامعة منتوري ، قسنطينة، بد.ت)

٨) صفر: احمد، مدنية المغرب العربي في التاريخ، (تونس: دار نشر بوسلامة، ١٩٥٩).

٩) الطائي: ابتهال عادل ابراهيم، دراسات منتخبة من العصر الاشوري الحديث ٩١١ ـ ٦١٢ق.م، (سوريا، دار رسلان للطباعة والنشر، ٢٠٢١).

١٠) عصفور: محمد أبو المحاسن، المدن الفينيقية، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨١).

١١) عمر: أحمد مختار عبد الحميد، معجم اللغة العربية المعاصرة، ط١، (القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٨ م).

١٢) غانم: محمد الصغير، التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط ، ط٢، (لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٨٢).
١٣) غلاب: محمد السيد، الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافيا والتاريخ، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٩).
١٤) فطومة: اشلاف، الاقتصاد الفينيقي في البحر المتوسط (١٢٠٠ ـ ٣٣٢ق.م)، اطروحة دكتوراه ، غير منشورة، (كلية العلوم الانسانية ـ جامعة الجزائر، ٢٠١٨).
١٥) قوعيش: شريف، دور البحرية الفينيقية في ربط العلاقات الحضارية الباكرة بين الحوض الشرقي للبحر الابيض المتوسط وغربه، رسالة ماجستير، غير منشورة، (كلية العلوم الانسانية والعلوم الاسلامية ـ جامعة وهران، ٢٠١٥).
١٦) اللبناني: طوبيا العنيسي الحلبي، تفسير الالفاظ الدخيلة في اللغة العربية مع ذكر اصلها بالحروف، تعليق: يوسف توما البستاني، ط٢، (مصر: مكتبة العرب، ١٩٣٢).
١٧) مازيل: جان، تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية، ترجمة: ربا الخش، (سوريا: دار الحوار للنشر والتوزيع، ١٩٩٨).
١٨) الهذال: حصة تركي، المراكز والمستوطنات التجارية الفينيقية في غرب البحر المتوسط قبل تأسيس قرطاجة، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، العدد(٤١)، (السعودية،٢٠١٦).
١٩) هيرودوت، هيرودوت في مصر(القرن الخامس قبل الميلاد)، ترجمة: وهيب كامل، (مصر: دار المعارف، ١٩٤٦).

الهوامش:

[١] بعد فك رموز كتابة موكينية قديمة(وهم شعب سبق الاغريق في سكن جزر بحر ايجة)اتضح ان كلمة فينيقي يعود اصلها الى الاقوام الكنعانية بمعنى ترجع الى اللغات الجزرية(السامية)وكان الاعتقاد السائد ان اصل الكلمة اغريقي، فطومة: اشلاف، الاقتصاد الفينيقي في البحر المتوسط (١٢٠٠ ـ ٣٣٢ق.م)، اطروحة دكتوراه، غير منشورة، (كلية العلوم الانسانية ـ جامعة الجزائر، ٢٠١٨)، ص١٧.

[٢] دوزي: رينهارت بيتر آن، تكملة المعاجم العربية، ترجمة: محمد سليم الغنيمي، (بغداد: وزارة الثقافة والاعلام، ١٩٧٩)، ١٣٥/١؛ عمر: أحمد مختار عبد الحميد، معجم اللغة العربية المعاصرة، ط١، (القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٨ م)، ٢/ ١٠٨٠.

[٣] البستاني: بطرس، محيط المحيط قاموس عصري مطول للغة العربية، (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٧)، ص٩.

[٤]اللبناني: طوبيا العنيسي الحلبي، تفسير الالفاظ الدخيلة في اللغة العربية مع ذكر اصلها بالحروف، تعليق: يوسف توما البستاني، ط٢، (مصر: مكتبة العرب، ١٩٣٢)، ص٣.

[٥] قوعيش: شريف، دور البحرية الفينيقية في ربط العلاقات الحضارية الباكرة بين الحوض الشرقي للبحر الابيض المتوسط وغربه، رسالة ماجستير، غير منشورة، (كلية العلوم الانسانية والعلوم الاسلامية ـ جامعة وهران، ٢٠١٥)، ص١٠٢ومابعدها.

[٦] فطوم ، الاقتصاد الفينيقي، ص ٢٢ وما بعدها.

[٧] باقر: طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة(حضارة وادي النيل)، (مجلدين، بغداد: بيت الوراق للطباعة والنشر، ٢٠١١)، ٢٧٢،٢٨٤/٢؛ غانم: محمد الصغير، التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط ، ط٢، (لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٨٢)، ص٤٢ ـ ٤٧.

[٨] الطائي: ابتهال عادل ابراهيم، دراسات منتخبة من العصر الاشوري الحديث ٩١١ ـ ٦١٢ق.م، (سوريا، دار رسلان للطباعة والنشر، ٢٠٢١)، ص ١٠٢.

[٩] فطومة، الاقتصاد الفينيقي ، ص١٢٣.

[١٠]غانم، التوسع الفينيقي، ص ٤٩. اطلق عليها محطات تجارية وهو دأب جميع من كتب عن الاساكل والمحطات التجارية هي تطور لاحق لنقاط العبور.

[١١] عصفور: محمد أبو المحاسن، المدن الفينيقية، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨١)، ص ١٢٢.

[١٢]جوليان: شارل اندريه، تاريخ افريقيا الشمالية تونس الجزائر المغرب الاقصى منذ البدء الى الفتح الاسلامي٦٤٧م، تعريب: محمد مزالي و البشير بن سلامة، (ليبيا: مؤسسة تاوالت، ٢٠١١)، ص٧٣.

[١٣]غلاب: محمد السيد، الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافيا والتاريخ، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٩)، ص٣٩.

[١٤]جزيل: ستيفان، تاريخ شمال افريقيا، ترجمة: محمد التازي سعود، (٨ اجزاء، الرباط: اكاديمية المملكة المغربية ـ مطبعة المعارف الجديدة، ٢٠٠٧)، ٢٩٣/١؛ صفر: احمد، مدنية المغرب العربي في التاريخ، (تونس: دار نشر بو سلامة، ١٩٥٩)، ص٨٠؛ قويعش، دور البحرية، ص١٢٠.

[١٥] صفر، مدنية المغرب، ص٨٠؛جوليان، تاريخ افريقيا، ص٧٣؛ قويعش، دور البحرية، ص١٢٠.

[١٦] مازيل: جان، تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية، ترجمة: ربا الخش، (سوريا: دار الحوار للنشر والتوزيع، ١٩٩٨)، ص١٠٥؛ فطومة، الاقتصاد الفينيقي، ص١٩٤.

[١٧] فطومة، الاقتصاد الفينيقي، ص١٣٦.

[١٨] قوعيش، دور البحرية، ص١٢٤.

[١٩] فطومة، الاقتصاد الفينيقي، ص١٣٠.

[٢٠] المرجع نفسه، ص١٨٥،١٢٩.

[٢١] هيرودوت، هيرودوت في مصر(القرن الخامس قبل الميلاد)، ترجمة: وهيب كامل، (مصر: دار المعارف، ١٩٤٦)، ص٩٢؛ فطومة، الاقتصاد الفينيقي، ص١٦٦.

[٢٢] الهذال: حصة تركي، المراكز والمستوطنات التجارية الفينيقية في غرب البحر المتوسط قبل تأسيس قرطاجة ، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، العدد(٤١)، (السعودية،٢٠١٦)، ينظر ملخص الدراسة ص١٣٥.

[٢٣] قوم من الاقوام الاغريقية جاءت بعد الاقوام الاخية في جزر بحر ايجة في ١٥٠٠ ق.م ، واخضعت الاقوام الاغريقية التي سبقتها ثم اخضعت المدن الايجية و غزت حضارتها. باقر، مقدمة، ٥٧٩/٢.

[٢٤]فطومة، الاقتصاد الفينيقي، ص٨٨، ١٢٢؛ قوعيش، دور البحرية، ص١٠٤؛ الهذال، المراكز والمستوطنات، ص١٤١ ـ ١٤٢.

[٢٥] انظر الرواية. جزيل، تاريخ شمال افريقيا، ٢٨٩/١.

[٢٦] الهذال، المراكز والمستوطنات، ص١٤١.

[٢٧] جوليان، تاريخ افريقيا، ص٧٣.

[٢٨] جزيل، تاريخ شمال افريقيا، ١/ ٣٢٠؛ غانم، التوسع الفينيقي، ص٨٣.

[٢٩] مصطلح اطلق على الفينيقيين عندما استوطنوا شمال افريقيا يمثل نتاج امتزاج المستوطنين الفينيقيين مع السكان المحليين لأفريقيا. صفر، مدنية المغرب، ص١٧٤؛ الدراجي: بوزياني، ملامح تاريخية للمجتمعات المغربية، (الجزائر: مؤسسة بوزياني للنشر والتوزيع، ٢٠١٣)، ص٧١ ـ ٧٢.

[٣٠] جوليان، تاريخ افريقيا، ص٧٣.

[٣١] جزيل، تاريخ شمال افريقيا، ٣٢٣/١؛ عصفور، المدن الفينيقية، ص٥٥.

[٣٢] فطومة، الاقتصاد الفينيقي، ص١٢٥.

٣٣ جزيل، تاريخ شمال افريقيا، ٣٢٣/١.

٣٤ مثال ذلك ما حصل في جزيرة صقلية وتحديدا مدينة موتيا التي تركت بسبب ضربات الاغريق فأنتقل الفينيقيون الى مدينة ليليبايوم بدلا منها. غانم، التوسع الفينيقي، ص٨٨-٩٠.

[٣٥] غانم، التوسع الفينيقي، ص٩٦.

[٣٦] جزيل، تاريخ شمال افريقيا، ٢٩٣/١.

[٣٧] الاقتصاد الفينيقي، ص١٣٤.

[٣٨] جزيل، تاريخ شمال افريقيا، ٣١٧/١؛ غانم، التوسع الفينيقي،ص١٠٦؛ فطومة، الاقتصاد الفينيقي، ص١٧٨؛ قوعيش، دور البحرية، ص١١٦؛ سلاطينة: عبد الملك، المستوطنات الفينيقية – البونية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، اطروحة دكتوراه، غير منشورة، (كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية ـ جامعة منتوري ، قسنطينة، بد.ت)، ص٢٠٧.

[٣٩] خارطة رقم (١)، ص١٦.

[٤٠] جزيل، تاريخ شمال افريقيا، ٣٢٠/١وما بعدها؛ فطوم، الاقتصاد الفينيقي، ص ١٨١ ـ ١٨٢.

[٤١] غانم، التوسع الفينيقي، ص٨٢.

[٤٢] خارطة رقم (٢)، ص١٦،

[٤٣] خارطة رقم (٣)، ص١٧.

[٤٤] غانم، التوسع الفينيقي، ص٩٣ ـ ٩٤؛ فطوم، الاقتصاد الفينيقي، ص١٧٨.

[٤٥]اوسع من كتب عن هذا الموضوع وبالتفصيل جزيل، تاريخ شمال افريقيا، ٢٩٨/١ وما بعدها.

[٤٦] للمزيد من المعلومات في وصف الميناء. جزيل، تاريخ شمال افريقيا، ٣٣/٢ وما بعدها؛ غانم، التوسع الفينيقي، ص١١٠ ـ ١١١؛ فطومة، الاقتصاد الفينيقي، ص١٣٩ ـ ١٤٠.

[٤٧] خارطة رقم (٤)، ص١٨.

[٤٨] جزيل، شمال افريقيا، ١/ ٣٦٧ ـ ٣٧٠.

[٤٩] خارطة رقم (٥)، ص١٩.

[٥٠] خارطة رقم (٦)، ص٢٠.

[٥١] لمزيد من المعلومات عن هذه الرحلة. جزيل، تاريخ شمال افريقيا، ١/ ٣٧٠ وما بعدها؛ صفر، مدنية المغرب، ص١٢٧ ـ ١٣٧؛

[٥٢] قوعيش، دور البحرية، ص١٢١.

[٥٣] صفر، مدنية المغرب، ص١٣٠- ١٣١.

[٥٤] تم سحب خرائط البحث من موقع كوكل، الخريطتان(٤-٥) من وضع وتحقيق احمد صفر من كتاب مدنية المغرب ص١٢٩ ، الخريطة (٦)من بيكارد بتصرف صفر، ١٣٠.